ميشال فوكــو:
تفكيك العلاقة بين الذات والسلطة عبر مسار فلسفي متحوّل

الباحث عبدالله بوسنينة
باحث في سلك الدكتوراه، جامعة ابن طفيل– القنيطرة
تحت اشراف: د. محمد مزيان
المغرب

.

تقديم عام :

ساهم مُفكّروا القرن العشرين في بناء خطاب فلسفي مختلف عمّا اعتاده التقليد الفلسفي الحديث الذي سيطر عليه الكوجيطو الديكارتي من جهة التنظيم المعرفي، وبصمت عليه الكنيسة سلطتها القيمية من جهة تنظيم السلوك الأخلاقي. إلاّ أن هذا التقليد لم يصمد أمام نقد معول نيتشه الذي عمل على كشف الأصل السلطوي للقيم، مثلما لم يصمد أمام صياغة منطق التعارض مع Stephane Lupasco[1] الذي تجاوز المنطق الأرسطي الثلاثي المبادئ و الثنائي القيمة، والذي غايته هي مُطابقة الفكر مع الواقع، إلى العمل على صياغة مبدأ الثالث المتضمّن Tiers Inclus والذي يستجيب للواقع المتحرك باستمرار؛ ولعل هذا هو ما أقرّته (نتائج الفزياء الكوانطية ونسْبية إنشتاين). من هنا سيُصبح العلم الجديد يعمل بمبدأ الاقترانية وبمبدأ الارتياب الذي صاغة Rezenbeurg[2]. وعلى هذا الأساس سينهار مبدأيْ اليقين والموضوعية اللّذين طبعاَ مرحلة العلم الحديث، حيثُ كان يُسيطر عليه مبدأ السببية في تفسير الواقع. نتيجة لهذه التحوّلات، ستتبلْور الملامح الأولى للفلسفة المعاصرة، وستتشكّل ثقافة النقد الذاتي بوجه خاص؛ بحيث أصبحت المراجعة الذاتية سِمة أساسية في هذا التقليد الفلسفي، قبل اعتماد سلاح النقد الموجّه للإرث العقلاني الحديث بصوره المتعدّدة.

تاريخياً : يقدّم لنا ألان باديو في محاضرة قيمة[3] لحظتين فلسفيتين بارزتين : لحظة الفلسفة الإغريقية، ولحظة الفلسفة الألمانية. إذ أن الأولى تمتدّ من بارمنيدس إلى أرسطو، وهي لحظة التأسيس؛ والثانية من كانط إلى هيجل.

وعلى غرار هاتين اللحظتين، تبلْورت الفلسفة المعاصرة الفرنسية* في النصف الثاني من القرن العشرين. إذ يمكن اعتبار فكر **جان بول سارتر** اللحظة المدشّنة لهذا النمط الفلسفي الممتد إلى **جيل دولوز** 1995، وبين الإثنين، تُوقِفُنا أعمال عمالقة كبار من أمثال **باشلار، ميرلوبونتي، ليفي ستراوس، ألتوسير، فوكو، دريدا** و **لاكان**...إلخ.

تعكس هذه اللحظة بحق، السياق الذي تشكّل فيه الفكر الفرنسي المعاصر والذي تميّز بالإبداع والخروج عن التقليد؛ بحيث أن الأخير (الإبداع) لا يعني بالضرورة إلغاء لكل ما هو قديم، بل لربمّا سيشكّل – في إطار استلهام ثقافات البدء والعودة إلى التجارب القديمة – مجالاً للتفلسف من خلال استعادة بعض رمزيات التراث اليوناني – في صيغتها الإبداعية والابتكارية تجاه الحياة – بحُلّة جديدة يُقارع بها هؤلاء ادّعاءات الرّعائية المسيحية التي امتدت في بدايات الفكر الحديث.

من هنا نسجّل تحرّر مُفكّروا اللحظة المعاصرة من مُكبّلات الفكر الحديث. حيث أصبحت الفلسفة في ظلّ هذه المراجعة النقدية تُمارَس على نحو جديد جعلها تتحرّر من نمُوذجيّتها الحداثية ومن يقينياتها الدوغمائية، عن طريق الأليات التفكيكية والأركيو– جينيالوجية.

عبر هذا التميّز بين ما هو معصر وما حديث، يكون مجرى تاريخ التفكير الفلسفي قد عرف انعطافاً كبيراً من حيث ممارسة الفلسفة نفسها، وذلك بانفتاحها على المختلف: (أهمّية موضوع الجنون في فلسفة فوكو مثلاً). وصفة الاختلاف هاته والتي مثلتها فلسفة جيل دولوز

(**الاختلاف والتكرار**) هي ميْسَم هذا النمط الجديد من التفلسف، بحيث لم يعد يخشى الشّك، وينفتح على الاحتمال، ويعترف بالتناقض، ويغتني بالتعدّد، ويتغدّى من اليومي المعاش بكلّ تلاوينه، بل بكلّ صراعاته.

واستناداً إلى هذا المنعطف، سنقف في هذا المقال على فكر واحداً من أعمدة الفلسفة في القرن العشرين، بحيث استطاع أن يرسم منحنى فريدا في تحليلاته وفرادة في نمط انتاجاته، ويتعلّق الأمر هنا بـ[**ميشال فوكو**]. إنه الاسم الذي أُقترن بإشكالية السّلطة في الفلسفة الفرنسية المعاصرة، ولم يُمنح وصف فيلسوف السلطة لولا منظوره المغاير لهذه الإشكالية في علاقتها بالذات؛ بحيث سيجعل من أعماله على تعدّد أوجهها، مجالاً شاسعاً للبحث بعيداً عن سؤال ماهي السّلطة ؟ قريباً من التعمّق في سؤال كيفيات اشتغال السّلْطة ؟

ذلك ما يدفعنا إلى تِبْيان بعضٍ من ملامح معالجة فوكو **لسؤال علاقة السلطة بالذات**، وإبراز مقاربته النقدية للمرحلة الحديثة التي تعاملت مع الذات بتجريدها من فُرادتها لتنحتها على مقاساتها السلطوية. لهذا سنعمل هنا بالوقوف على كتابات فوكو الأخيرة والتي أثارت بحق هذه الإشكالية، ذلك ما دفعنا إلى فتح الأجزاء الثلاثة لـ" **تاريخ الجنسانية** 1976/1984" و " **دروس تأويل الذات في الكوليج دي فرانس** 1981/1982"

إن الإحاطة بحيثيات هذه العلاقة التي يحللها فوكو، تستدعي الانطلاق أولاً من رصد السياق الفكري العام الذي تشكّل فيه فكر فوكو، والإشارة إلى أهم أعماله التي شكّلت الأرضية الفكرية لمعالجة قضايا المعرفة والعلوم الإنسانية وسلطة المؤسّسات والخطاب قبل استدراج البُعد الجمالي/ الاخلاقي في المرحلة الأخيرة، لا سيما التذكير بأهمّية المقارنة بين العصر الحديث في صيغته الرجعية/ المنغلقة تجاه الذات، واللحظة الإغريقية والرومانية التي عرفت انفتاحاً وتساهلاً مع الجسد كبُعد جمالي، أكثر ممّا هو مصدر للخطيئة.

أولاً : السياق الفكري العام

- **في الظرفية التاريخية:**

إن قراءة فكر **ميشال فوكو**[4] تُلزمنا بداية أن نستحضر السياق العام الذي ظهر فيهkففي ستينيات القرن الماضي قد صُنّف فكر فوكو ضمن إطار البنيويين Les Structuralistes لكنه ما فتئ أن تملّص من هذا التصنيف.[5] وهذا الرفض هو ما زكّى أطروحة ثانية تقول بانتمائه إلى ما بعد البنيو Post-Structuralisme[6] ، لكن مشروعه الأركيولوجي أثبت عدم قابلية الانضواء تحت يافطة التيارين معاً؛ ذلك هو مفاد القول بأن " نقد العلوم الإنسانية تلاه التملّص من دعاوي البنيوية التي لطالما حُشِرَ فوكو مع كبار روّادها. فالبنيوية استخلاص للقوانين المجرّدة الدالّة على بنية ثابتة في حين أن الأركيولوجيا هي تعقّب للتوثبات القطاعية والتحوّلات المجهرية الدالة على حيويّة مُتمنّعة على التثبيت."[7]

يدفعنا عدم قبول فوكو تصنيفه في اطار هذين التيارين إلى رفع سؤال آخر مفاده القول : هل يمكن تصنيف فلسفته إذن في إطار ما بعد الماركسية ؟ لا سيما إذا ما اعتبرنا أن مشروعه الفكري يعمل باستراتيجيات في التفسير تُعرّف وتحدّد أليات السيطرة، تماماً مثلما دأبت عليه فلسفة ماركس. لكن المتعقّب لأفكار فوكو في بحثه الجينيالوجي، لا يُنكر وجود تأثير قوي لفكر نيتشه في فلسفته، وإن كان الأمر غير مصرّح به من قبل فوكو، إلاّ من خلال بعض الحوارات الصحفية/ الفكرية. مثلما أنّه لا يمكن أن ننكر تأثير التيار الوجودي في الوسط الفكري الذي صاحب لحظة تشكّل فكر فوكو المهوس بمعجم إقرار الحرية. ناهيك عن عدّة عوامل سياسية لا يمكن أن نقرأ بدايات فوكو دون أخذها بعين الاعتبار، سيما ونحن في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والمتميّزة بالنزعة الطهرانية والأخلاقية التي تَضَايق منها فوكو.

ليس وحدها الروافد الفكرية المتعددة هي التي تركت بصمة في بدايات تشكّل فكر فوكو، بل إن علاقاته الاجتماعية كذلك كان لها أثراً على بدايات تشكّل فلسفته، ونشير هنا لكل من علاقته بـ[بيار بورديو P.Bourdieu] و [لويس ألتوسير L.Althusser]، حيث أن هذا الأخير مثلاً، هو من أقنع فوكو بالانخراط في الحزب الشيوعي الفرنسي (1950/1952).[8]

في نفس السياق، يستحيل أن نتحدّث عن فكر فوكو بمعزل عن معاصره جيل دولوز، لِما جمعهما من تقارب – ليس فقط على مستوى الزمن أو الجغرافيا – وإنّما على مستوى تأثير فكر الواحد على الآخر، بحيث " لقد كتب فوكو حول دولوز شذرات رائعة، وأحال إلى أهميّة اعماله في مجال إخصاب المجال الفكري الفلسفي المعاصر."[9]

تلكم هي جملة الأحداث، أو ذاك هو السياق الفكري العام الذي انبثق من وسطه فكر فوكو، بحيث لا يمكن أن ننكر تأثيره عليه، بقدر ما لا يمكن أن نسلّم بانصهار فكر فوكو كلّيا في مذهب جاهز وسابق عليه؛ بل كان لمساره الفكري لمسة ذاتية بامتياز وهي ما سنحاول الكشف عنها ضمن رصد خصوصية أبحاثه.

- **أعمال فوكو** :

إن تعقّبنا لمؤلفات ميشال فوكو، بُدءاً بـ[تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1961] وانتهاءً بـ[تاريخ الجنسانية 1984/1976]، يكشف لنا أن كل هذه الأعمال لا يمكن أن تخرج عن ثلاثة أبعاد رئيسية :

- **بعد معرفي/أدبي** :

في إطار هذا البعد يكشف لنا فوكو عن كيفية بناء المرء علاقته مع الحقيقة، وهو ما عمل عليه أساساً في أبحاثه المعنونة :

- الكلمات والأشياء. Les Mots et les Choses. Une Archéologie des Science Humains 1966
- حفريات المعرفة L'Archéologie du Savoir 1969

في هذه الأعمال "كسّر فوكو التقليد الراسخ الذي تناول المعرفة كنتاج صاف للوعي والفكر والمنطق."[10] بحيث سيقف – من خلال عودته إلى تفكيك الخطاب، ليس بُغية التعرّف على مواطن الصواب أو الخطأ فيه – على الخطابات لكي يُبيّن عمّا تتنكّر له بالذات فيما هي تتكلّم عليه. وفي هذه الأبحاث، سيتّخذ فوكو من الأركيولوجيا منهجاً في تفكيك بنيات الخطاب، وهو المنهج (الذي يكشف لنا كيفية التمفْصل بين الكلمات والأشياء) وذلك في أفق إقامة الثنائية الجديدة لدى فوكو : المفكّر واللاّ–مُفكّر فيه، بدل الإرتكان للزوج الإبستيمولوجي السالف: صحيح/خطأ.

إن هذا هو ما فعله فوكو عندما باشر كتابة تاريخ الأفكار في ميادين الفلسفة والعلوم الإنسانية بُدْءً من عصر النهضة حتى نهاية القرن 19 مروراً بعصر الأنوار.

- **البُعد السلْطوي** :

يكشف هذا البعد عن النّمط السلطوي الذي يُنظِّم علاقة الأفراد بالمؤسّسات، بحيث اشتغل فوكو على هذا الموضوع بإمعان في مؤلفاته الموسومة بـ:

- ميلاد العيادة، اركيولوجيا النظرة الطبية. Naissance de Clinique, une archéologie du regard médical 1963.
- المراقبة والعقاب، ميلاد السجن. Surveilles et Punir. Naissance de la Prison. 1975

ويمكن أن نظيف إلى هذين المؤلفين، الجزء الأول من تاريخ الجنسانية المعنون بـ[**إرادة المعرفة**] الذي عالج فيه فوكو علاقة السلطة بالذات؛ والتي سنعود إليها بالتفصيل في المحور الثاني من هذا البحث.

بمُجرّد الوقوف على كتاب [المراقبة والعقاب] الذي يندرج ضمن الأبحاث المهتمّة بإشكالية السلطة، يكشف لنا أنّ فوكو قد اعتمد نمطاً جديداً من التحليل تجاه إشكالية السلطة؛ وبهذا فإن : " ميشيل فوكو يملك شهادةَ نظرةٍ مغايرةٍ للسلطة، والثّابت أنّ (فوكو) لا يسعى من

اهتمامه بهذا المفهوم إلى بناء نظرية تجريدية متكاملة ونسقية، لأنّ سُؤال الماهية لديه: ما السلطة ؟ لا يدخل في قلب انشغالاته، بل إنّه يستعيض عنه بالتّساؤل عن الكيفية التي بها تنبجس السلطة إلى الوجود، فلا وجود لسلطة إلا وهي ممارسة."[11]

وعبر هذا التحوّل في نمط المعالجة هو ما جعل فوكو يسلُك منحى مُغايراً للكشف عن تمفصل المعرفة والسلطة؛ لهذا " سيظل فوكو وفياً لهذا المنظور النقدي لتعمّق أبحاثه اللاّحقة التفكير في مسألة [التطبيع Normalisation والمعيارية Normativité] والتي ستسمح بفهم التداخل بين مستويات المعرفة والسلطة."[12] وهذا ما دفعه إلى دراسة المؤسّسات التي تشكّل أرضية السلطة (السجن- المستشفى،.. إلخ). والتي ستكون عنواناً للمجتمع الأوروبي الحديث بوصفه مجتمع الانضباط، بحيث تضبطه سلطة معيارية تنزع إلى بناء الثنائيات (السوي/المنحرف، العاقل/المجنون،..)، ذلك أنه " في هذا السياق الدقيق شرع فوكو في ارتسام مهمّة طريفة : تتمثّل في إعادة تحليل ودرس مسألة تغيّر وتحوّل أخلاقيات المجتمع، تلك الأخلاقيات التي يطرأ عليها التبدّل، ذلك أن لكل مجتمع إكراهاته وقوانينه القسرية، وكلّ من يخترق هذه القوانين سوف يُقصى، ويُستبْعد."[13] إنّها باختصار سلطة تحرس على تطويع الأجساد كما العقول.

ذلك ما تأكد في هذه الأبحاث، التي استخدم فيها فوكو مقاربة جديدة، بحيث " يفتح سؤال السلطة على الحقل الصراعي لعلاقات القوى التي تتجاوز مختلف الأشكال المؤسّسية المتعارف عليها تقليدياً، والتي كانت تعتبر (الأماكن) الوحيدة لبلورة السّلطة وتصريفها."[14]

- **البعد الخطابي :**

يمكن أن ندرج بُعداً أخر ناقشه فوكو وتعمق فيه بالبحث الأركيولوجي، ويتعلّق الأمر بمسألة الخطاب، بحيث كانت معالجته تلك من منظور جديد يعود فيه الفضل إلى Dumézil الذي قال فيه حقّه فوكو " إنّه الذي علّمني تحليل التفاعلات الداخلية للخطاب بطريقة اخرى غير طرائق التفسير التقليدي."[15] لذا، سنُشير هنا باقتضاب إلى الدرس الافتتاحي لفوكو بالكوليج دو فرانس سنة 1970 الموسوم بـ[نظام الخطاب]، حيث سيكشِف فيه بأن الخطاب مراقب ومنظّم في كلّ المجتمعات، وبعبارته: " تجيب المؤسّسة : لا تخشى أن تبدأ؛ فكلّنا هنا لنُريك بأن الخطاب خاضع لقوانين؛ وبأنّنا نسهر، منذ زمن طويل، على ظهوره، وأنّ مكاناً قد أعدّ له، مكاناً يُشرّفه لكنّه يُجرّده من سلاحه، وإذا حصُلت أن كانت له بعض السّلطة، فإنّه يستمدُّها منّا ومنّا فقط."[16]

هكذا نفهم بأنّ الخطاب منظّم من خلال جملة من الإجراءات والتي هدفها هو الحدّ من خطورته. فإجراءات المنع هذه، يقول فوكو: " إنّنا نعرف جيداً انّه ليس لدينا الحق في أن نقول كلّ شيء، وأننا لا يمكن أن نتحدّث عن كل شيء في كلّ ظرف، ونعرف أخيراً أن لا أحد يمكنه أن يتحدّث عن أي شيء كان."[17]

فهذه الإجراءات وراءها ثلاث منظومات للإبعاد (إجراءات خارجية) يحدّدها فوكو في (نظام الخطاب) على النحو التالي :

1) الرغبة والسلطة.

2) العقل مقابل الحمق أو الجنون.

3) الحقيقة مقابل الخطأ.

إن ما يروم إليه فوكو في هذا الصدد، هو ما يمكن تسميته " بعدالة على مُستوى القول، كما هو شأن الخطاب لدى شعراء الإغريق في القرن السادس قبل الميلاد." إذ لابدّ ونحن نسعى إلى خطاب حقيقي من وجهة نظره، أن نخلّصه من مراقبة السلطة، ويسمع للمجنون، ويستجيب للرغبة.

- **البعد الجمالي " الأخلاقي ":**

في أعمال الأخيرة سيتناول فوكو الكشف عن طُرق احتواء السلطة للذات، لتحويلها إلى ذات طيّعة وفق نموذج معياري، وسيُبّن فوكو المعايير الأخلاقية التي تنظّم علاقة الفرد بذاته ورغباته، في إطار مقارنة بين اللحظة الحديثة من جهة، وثقافة الذات كما كانت سائدة لدى كل من الإغريق والرومان من جهة ثانية. وهذا ما عمل عليه في الجزأين الثاني والثالث من " تاريخ الجنسانية " المشكّلة من :

- 1) إرادة المعرفة La Volonté de Savoir
- 2) استعمال المتع L'Usage des Plaisirs
- 3) الاهتمام بالذات Le Souci de Soi

لقد شكّل الجزء الأول من هذه الأبحاث، محور إعادة تحليل علاقة السلطة بالذات لدى فوكو، بحيث " إن هذا المسلك هو ما توّج أيضاً في أعمال فوكو الأخيرة التي أعادت سؤال الذات إلى الواجهة بعدما أقبرته مرحلة الستينيات في خضمّ مرحلة البنيوية على النزعة الذاتية."[18]

فيما ذهب الجزأين الأخيرين بالإضافة إلى دروس تأويل الذات في الكولويج دو فرانس، لحظة فكرية للتذكير بأهمية التشكل الجمالي للذات بوصفه مقاومة لأنظمة المعيار التي انتهجتها الفلسفات الحديثة المترتبة في جزء كبير منها عن القيم المسيحية، والتي تقوم على فبركة الذوات تبعاً لما ترتضيه سلطة الأنظمة الثقافية والمؤسساتية.

ثانـياً : متعة الذات في قبضة السلطة

قادنا تتبع تشكّل مسار فكر فوكو، إلى القول بأنّه بقدر ما عرف جملة من التحوّلات والانقطاعات، بقدر ما كان مساراً يتمحور حول البحث في إشكالية كيْفية ممارسة السلطة، وعلاقتها بالمعرفة والحقيقة والذات في المجتمع الغربي الكلاسيكي. وهذه التحوّلات التي عرفتها فلسفة فوكو، هي ما جعلت من فكره يُوصف بالتعدّد، ذلك هو مغزى القول بأنه " ينتمي كل من دولوز وفوكو فلسفياً إلى ما يُمكن تسميّته بفكر التعدّد."[19]

لكن ما يجمع ويُوحّد هذه المراجعة النقدية – والتي بقدر ما رسمت منحى مختلف للتفلسف في القرن العشرين، بقدر ما تطرّقت لإشكاليات كبرى بتشخيص مُختلف للقضايا، والذي وجد في مسلكيْ الأركيولوجيا والجنيالوجيا منحيَيْن للتحليل والكشف – ليس هو الابتعاد عن بناء نظريات للسلطة كما دأب عليه التقليد الفلسفي الحديث، وإنّما هو قدرتها على زعزعة مركزية العقل الغربي، وفضح تواطئ السلطة المتعدّدة الأشكال مع المعرفة.

إذا كان فوكو قد انطلق في بداياته الفكرية من معالجة إشكاليات الجنون وكيفيات تشكّل المعرفة وأنظمة الخطاب، فإنه في أعماله الأخيرة سيعود إلى البحث في إشكال الذات الراغبة، وبعبارته: " فبعد دراسة ألاعيب الحقيقة بالعلاقة مع بعضها البعض – حول مثال معين من العلوم التجريبية في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر – ثم دراسة ألاعيب الحقيقة بالعلاقة مع علاقات السلطة – حول مثال الممارسات العقابية – كان هناك عمل اخر يفرض نفسه فرضاً : تشكّل الذات نفسها كذات، وذلك باعتماد ما يمكن أن نسمّيه ب " تاريخ إنسان الرغبة " كمرجعية وكحقل للبحث والتقصّي."[20]

إنّ مسعى هذا المقال، هو تتبّع ومعرفة كيفيّة تشكّل "الذات" انطلاقا من أبحاث فوكو التي أرّختْ لمسألة الجنسانية في الغرب الحديث؛ بحيث جعل فوكو من هذا التأريخ مجالاً خصباً لتتبّع وضعية الذات الراغبة وعلاقات السلطة التي تحاول أن تبلْورها وتوجّهها وفق أهدافها.

بحيث سيُركّز فوكو في " إرادة المعرفة " على مرحلة زمنية أساسية من تاريخ الفكر الغربي، ويتعلّق الأمر بالفترة الحديثة التي يُطلق عليها مسمّى [العصر الكلاسيكي] و هي الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر.

يشكل هذا المجال الزمني الطويل أرضية لبحث فكري مُعمّق، جعل من ميشال فوكو يضع سؤال الجنس على محكّ السلطة، ليست فقط في شكلها الدّيني المسيحي، وإنّما في أبعادها السياسية والاقتصادية والتربوية والطّبية بأوجهها المختلفة (العقلية والنفسية).

فعبر هذا التحوّل يكتشف فوكو، بأن الاحتكار بشأن الحديث عن الجنس سيُنزع من قبضة المسيحية القائمة على مبدأ (الاعتراف الواجب)، إلى أشكال تدخّل جديدة؛ ذلك هو مغزى قوله: "بدأت تنشأ تكنولوجيا للجسد جديدة كليا (...)؛ فبواسطة التربية والطب والاقتصاد، كانت تجعل من مسألة الجنس لا مسألة دنيوية لائكية وحسب، وإنّما مسألة تخصّ الدولة."[21]

لقد سجّل فوكو في بداية بحثه، أنّه ثمّة انفجار خطابي بخصوص الجنس مع مطلع القرن السابع عشر، بل وفي ظلّ الحكم الإليزابيتي المحافظ؛ وذلك بالرغم من فرض الرّعائية المسيحية لقواعد الصمت والحشمة. ولكن منذ عصر القمع هذا، ستتشكّل تحوّلات بخصوص سؤال الجنس، صاغتها في العمق تطلّعات البورجوازية.

نفهم مع فوكو أذن، أنه بقدر ما ستتطوّر البورجوازية الأوروبية بقدر ما ستتغيّر أنظمة الإنتاج، والذي يستدعي وجود طاقات عاملة قادرة على تلبية مطامحها الاقتصادية، من هنا سيصبح الجسد موضوع السلطة بامتياز. لكن الغريب في الأمر –كما استخلصه فوكو – هو أن الجنس لم يكن موضوع حظر ولم يكن موضع ترحيب في الأن ذاته، وبعبارته: " إلا أن هذه السلطة بالذات (...) فهي لا تقيم سدود، بل تعدّ أمكنة لأعلى درجات الإشباع، إنّها تُنتج وتثبت التباين الجنسي."22

نستخلص إذن، بأن الجنسانية صارت على محكّ السلطة الحديثة، وبالتالي لم تصبح شيء بيولوجي/جسدي محض، وإنما أصبحث مُعطى ثقافي، سياسي ومعرفي بالأساس. ومن هذا الاحتواء سيصبح الحديث غير ممكن عن الجنس خارج جهزوت السلطة من وجهة نظر فوكو.

إن انطلاق فوكو من فرضية مفادها أن علاقة السلطة بالجنس هي علاقة قمع، هي ليست بالفرضية الخاطئة، وإنما هذا العنصر من وجهة نظره قد أصبح ضرورياً ضمن حسابات السلطة بتشعّباتها وفق مبدأ " قيام جنسانيات متعدّدة الأشكال؛ وإن إرادة المعرفة لم تتوقّف أمام محرّم لا يمُس، ولكنّها انصرفت وبإصرار – من خلال كثير من الأخطاء بدون شك – إلى تشكيل علم بالجنسانية."[23]

إنّ هوس السلطة في الغرب باحتواء سؤال الجنس، ليس هدفه الأساسي هو تطويقه وحصره في أشكاله التقليدية (الأسرة)، إذ وبحيث كونها (السلطة) ليست سوى جملة من علاقات القوى، بمعنى أنّها بعيدة على أن تكون مؤسّسة يعود حكمها إلى فرد معيّن، فإن هذا ما يسمح لها بأن تُمارَسَ على نحو متشابك بل ويغطّي الجسد الاجتماعي بطبقاته المختلفة. وهذا الامتداد الأفقي في تصور فوكو هو ما ينزع إلى جعل الذات موضوعاً للمراقبة والتتبّع حتى تنصهر ضمن قوالب تتماشى وطبيعة النظام الاقتصادي الذي ترعاه السلطة السياسية. وعبر هذا التدخّل ستكون توجيه الرغبة أهم بكثير من مسائلتها (مشروع/ محظور)؛ وهذا لن يتسنّ من منظور فوكو إلا بإقامة [علم للجنسانية].

وهكذا فعندما يهتم التحليل النفسي بخطاب الجنس، سيُصبح مبدأ الاعتراف معمولاً به على نحوٍ مغاير، أي على أريكة المحلّل النفسي بدلاً من فضاء الكنيسة. فهذا المنحى المغاير الذي عرفه مبدأ الاعتراف، لم يكن من وجهة نظر فوكو لولا تدخّل بعض المجالات العلمية على الخط (بيداغوجيا Wesleyenne و نموذج الطب النفسي والعقلي)، من هذا المنعطف الجديد، سيعرف القرن التاسع عشر **علماً للجنس**.

لكن فوكو يرفض هذا المعطى، لكون الجنس هو مجال الحرية والابتكار وليس مجالاً للتلقين والتوجيه، ببساطة لأن مفهوم [علم] يفترض بالضرورة وجود موضوع نتدخّل فيه وفق قواعد ومناهج؛ وبما أن الأمر بالنسبة إلى فوكو أكبر من ذلك بحيث يجب أن تبقى الذات " ذاتاً " وليست [موضوعاً] للدراسة، فإنّه ينتقد هذا الشكل من الأساس.

من هنا يتساءل فوكو لماذا لم تعرف الحضارة الغربية الفنون الإيروسية Ars erotica كما عرفها الشرق القديم؛ باعتبار أن هذا الفن لا يُدرّس وليست من ورائه أهداف التوجيه والتتبّع والتقييم؛ وبعبارته " الحقيقة في الفن الإيروسي، تستخرج من المتعة نفسها، منظور إليها كممارسة ومتلقّاة كتجربة، وليست مع قانون مطلق للمباح والمحرّم."[24] هكذا يستخلص فوكو بأن العلاقة بالجسد تختلف بين الحضارتين: شرقية تحرّر الجسد، وغربية تقيّده وفق نماذج جاهزة في أفق التطويع؛ الأولى تشتغل وفق مبدأ الإلهام، والثانية وفق قانون التلقين.

تلك هي استراتيجيات الإخضاع، بحيث تعمل السلطة بتحويل الذات إلى موضوع للاشتغال، تشتغل على تأسيس هويّة مُوحّدة، تُمحي من الذات أثر الابتكار والتفرّد، وتعيد إنتاجها وفق أليات التدجين المتحكم فيها.

إذا كان الإقرار لدى فوكو ينتهي إلى القول بأنه " أين ما كانت السلطة، تكون هناك مقاومة "[25] فأخرُ السلطة بالنسبة له هو تفعيل المقاومة لربح رهان الذات بوصفها ذاتاً. إلاّ أنه يؤكّد بأن مسألة المقاومة ليست مُعطى جاهزاً، وإنما هي خلاصة تجربة شاقّة يخُوضها الفرد ضدّ

الأنظمة المعيارية الجاهزة والهويات القبْلية. فمتى حصل هذا الوعي بسؤال من نحن؟ ومَن وَراء المبادئ التي تحكمنا؟ انبثق الإحساس بالمقاومة تجاه استراتيجيات السلطة التي تشتغل على الإبقاء بالذات كموضوع، كشرط لاستمراريتها وتقويتها.

من هذا التأريخ للجنسانية الغربية على مدى ثلاثة قرون، يكون ميشال فوكو قد وضع الغرب الحديث أمام صوره الحقيقية؛ بحيث لم يعُد شعار الإنسان القانوني/الحقوقي هو الواقعي، بقدر ما أن هناك تشكّلات خفية للسلطة تُخضع الذات لمجموعة من الاستراتيجيات لتُعيد إنتاجها لما يتماشى ونظرتها المختزلة في التدجين والتطويع والتي طالت " الجسد النسوي، اليقظة الطفولية، تنظيم الولادات، وبقدر أقل دون شك تخصيص الشواذ."[26]

إن نقد فوكو لهذه الاستراتيجيات لن يتوقّف في حدود فضح التجربة الحديثة بتقزيمها لسؤال الجنس وعبره استغلال الجسد؛ بل سيتعدّاه إلى إبراز تجارب أكثر تقدّمية واقدم تاريخياً من هذه الفترة. ويتعلّق الحال بتجربتي الإغريق والرومان، إذ كشف بإمعان على كيفية استعمال المتع في هاته الفترة بعيداً عن تحكّم المدوّنات الأخلاقية التي تقوم على التحريم والتوجيه، بقدر ما رأى فيها تجربة أعلت من ثقافة الذات من خلال لدفع إلى التشكل الجمالي المرتبط بكيفيات تصريف المتع عبر التزام الفرد تجاه ذاته أولاً، وفي علاقته بالتدبير السياسي الذي يقتضي الفضيلة على مستوى الفرد لتتحقّق على مستوى المدينة الدولة ثانياً.

الهوامش

1) يتعلق الأمر بمنطق التعارض عند ستيفان لوباسكو والذي هو منطق ذو ثلاثة حدود ويميز بين ثلاثة أنواع من المنطق: منطق المادة غير الحية (المنطق الأرسطي)، منطق المادة الحية، والحالة "ث" (التي تمثل حالة وسيطة متوازنة). يتعامل هذا المنطق مع التعارض بطريقة لا تقتصر على "إما/أو" التقليدية، بل تتجاوزها إلى فهم الحالات التي تجمع بين التناقض والوجود.

2) يعتبر مبدأ عدم التحديد أو مبدأ عدم التأكد أو مبدأ الريبة أو مبدأ اللايقين أو مبدأ الشك) بالإنجليزية (Heisenberg Uncertainty Principle) من أهم المبادئ في نظرية الكم بعد أن صاغه العالم الألماني هايزنبرج عام 1927 وينص هذا المبدأ على أنه لا يمكن تحديد خاصيتين مقاستين من خواص جملة كمومية إلا ضمن حدود معينة من الدقة، أي أن تحديد أحد الخاصيتين بدقة متناهية (ذات عدم تأكد ضئيل) يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرى، ويشيع تطبيق هذا المبدأ بكثرة على خاصيتي تحديد الموضع والسرعة لجسيم أولي .فهذا المبدأ معناه أن الإنسان ليس قادرا على معرفة كل شيء بدقة 100%. ولا يمكنه قياس كل شيء بدقة 100%، إنما هناك قدر لا يعرفه ولا يستطيع قياسه. وهذه الحقيقة الطبيعية تخضع للمعادلة المكتوبة أدناه والتي يتحكم فيها h ثابت بلانك.

1) أندلسي (محمد)، **مدارات فلسفية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2007، العدد 15، ص 54.

*) ركّزنا على الفكر الفرنسي، لأن موضوع مقالنا يتمحور حول فلسفة ميشال فوكو.

2) مفكّر فرنسي (1984/1926)، يعتبر من فلاسفة الاختلاف، تقدّم بأطروحة دكتوراه سنة 1961 تحت عنوان " **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي** " ليعقبها عطاء فكري زاخر، تمحور في البحث عن إشكالية السلطة والمعرفة، السلطة والذات، وزعزعة يقينيات العقل الغربي؛ له الكثير من المؤلفات، من بينها : " **الكلمات والأشياء** " و " **حفريات المعرفة** " و " **المراقبة والعقاب** ".

3) راجع الحوار الذي أجراه **م. فونتانا** مع **ميشال فوكو** والذي نُشر بمجلّة **القوس L'arc** العدد 70 سنة 1977.

4) يصحّ هذا التصنيف إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن البنيويين عالجوا مسألة الخطاب انطلاقاً من التحليل الذي يُجْرى على بنية النص، أو موضوع النص مع المنهجية المصاحبة له، فيما ستتّخذ معالجة فوكو للخطاب بُعداً أخر، لاسيما علاقته بالسلطة التي تراقبه وتضع له إطاره العام.

5) مزيان (محمد)، **علامات فلسفية: دولوز، فوكو، هايدجر...**، منشورات فضاء ادم، طبعة 2015، ص 13/12.

6) بن بو جليدة (عمر)، مقالة : **ميشيل فوكو ورفض الانغلاق في العقل اكتمالاً أو بين مراقبة الجسد وتدبّر الحياة**، ضمن **موسوعة الأبحاث الفلسفية** للرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، **الفلسفة الغربية المعاصرة، صناعة القل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المُزدوج**، الجزء الثاني، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى 2013، ص 855.

7) لعريصة (مصطفى)، **مدارات الذات : في اللغة والسلطة والتنوير**، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، 2016 ص 44.

8) حرب (علي)، **هكذا أقرأ فوكو**، من موقع : http://post2modernisme.blogspot.com

9) بن جيلالي (محمد امين)، **ميشال فوكو وسؤال السلطة : من الاختزال إلى التشظي؛ نحو فينومينولوجا تأويلية للسلطة وإضافة اللامُفكّر فيه في السياسة**، موقع مؤمنون بلا حدود، 2016/06/22 ص، 2.

10) لعريبصة (مصطفى)، **مدارات الذات : في اللغة والسلطة والتنوير**، مرجع سابق ص 79/78 .

11)) بن بو جليدة (عمر)، مرجع سابق.

12) لعريـصة (مصطفى)، **مدارات الذات : في اللغة والسلطة والتنوير**، مرجع سابق، ص 78

13) فوكـو (ميشال)، **نظام الخطاب**، ترجمة : محمد سبيلا، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 2012 ص 51

14) فوكـو (ميشال)، نظام الخطاب، مرجع سابق، ص 7.

15) فوكـو (ميشال)، نظام الخطاب، مرجع سابق، ص 8.

16) مزيان (محمد)، **علامات فلسفية: دولوز، فوكو، هايدجر**، مرجع سابق، ص، 14.

17) لعريصة (مصطفى)، **مدارات الذات: في اللغة والسلطة والتنوير**، مرجع سابق، ص، 47.

18) **فوكو** (ميشال)، **تاريخ الجنسانية 2، استعمال المتع**، ترجمة وتقديم محمد هشام، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية 2014، ص8.

[21]) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان، ترجمة وتقديم محمد هشام، أفريقيا الشرق، طبعة 2004، ص 98.

22) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان ، ص 42. [22]

23) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان، ص 23.14

24) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان، ص 49.[24]

25) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان ص 79.[25]

26) فوكو (ميشال) تاريخ الجنسانية 1 إرادة العرفان ص 90.[26]